HNSJ Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة

عنوان البحث

رحلة الحسن الوزان المعروف ب " Jean Leon L'Africain "
إلى دول أفريقيا جنوب الصحراء
تقاطعات الأبعاد الفكرية و الحضارية

عبد الله الحاجي[1]

[1] أستاذ التعليم العالي، مركز تكوين الأساتذة CRMEF-SM، جهة سوس ماسة، أكادير، المغرب.

Email: elhajji2008@gmail.com

تاريخ القبول: 2020/11/20م تاريخ النشر: 2020/12/01م

المستخلص

ينتمي الحسن بن محمد الوزان الفاسي الأندلسي إلى قبيلة بني زيات الزناتية الواقعة بين سبتة وتطوان بالمغرب، عاشت أسرته حقبا من الزمن في الأندلس الإسلامية، ولد الحسن الوزان بفاس و درس بجامع القرويين على كبار علمائها. شغل مهام سياسية خطيرة في المغرب، دفعته إلى القيام برحلات عديدة، كان أهمها الرحلة الثالثة إلى دول أفريقيا جنوب الصحراء، التي وصفها في كتابه "وصف أفريقيا"، حيث صحب فيها عمه الذي كان مكلفا بسفارتي المغرب ومملكة "سنغاي" في عهد محمد الوطاسي الشهير بالبرتغالي .

تحدث الحسن الوزان عن زيارته لخمس عشرة مملكة في السودان الغربي كان أهمها : مالي و تنبكتو وكوبر و كانو و بورنو و كوكة و كاو وغيرها، وهي ممالك تتوزع على المجال الجغرافي في حوض نهر النيجر.

الكلمات المفتاحية: سبتة ـ تطوان ـ الأندلس ـ المغرب ـ مملكة سنغاي ـ محمد الوطاسي ـ نهر النيجر.

RESEARCH ARTICLE

THE VOYAGE OF AL-HASSAN AL WAZZAN, IDENTIFIED AS "JEAN LEON L'AFRICAIN" TO THE COUNTRIES OF SUB-SAHARAN AFRICA
Intersection between intellectual and cultural dimensions

Abdallah EL HAJJI [1]

[1] Higher Education Professor, Souss Massa CRMEF-SM Center, Agadir, Morocco, Email: elhajji2008@gmail.com

Accepted at 20/11/2020 **Published at 01/12/2020**

Abstract

Al-Hassan Bin Muhammad Al-Wazzan Al-Fassi Al-Andalusi belong to the family of Beni Zayat Al-Zenatia, located between Sebta and Tetouan in Morocco. His family lived for many years in Islamic Andalusia. Al-Hassan Al-Wazzan was born in Fes and studied at the Al-Qarawiyyin Mosque among its leading scholars. He held dangerous political assignments in Morocco, which prompted him to undertake many trips, the most important of which was the third voyage to sub-Saharan Africa, which he described in his book "Description of Africa", in which he accompanied his uncle, who was in charge of the embassies of Morocco and the Kingdom of "Singhai" during the reign of the famous Mohamed El Wattassi known as the Portuguese.

Al-Hassan Al-Wazzan talked about his visit to fifteen kingdoms in western Sudan, the most important of which were: Mali, Timbuktu, Koper, Kano, Borno, Kouka, Kau and others, which are kingdoms distributed over the geographical area in the Niger River basin**.**

Key Words: Sebta - Tetouan - Andalusia - Morocco - the Kingdom of Singai - Mohamed El Wattassi - Niger River

تقديم

قبل أن نغمد القلم في المحبرة، كان الهدف أن لا نرتهن لنظرة ضيقة أحدية الرؤية في التعاطي مع موضوع رحلة الحسن الوزان إلى دول أفريقيا جنوب الصحراء، ذلك أن الحسن الوزان سينتقل من بيئة معتدلة المناخ إلى بيئة أقل ما جادت به المصادر الوسيطة أو الحديثة أن اختراقها ليس بالأمر الهين، لأن مصادر الماء قليلة، وحتى إذا افترضنا أنها موجودة فإنها تحتاج إلى دليل القافلة الذي يسير بها من محطة إلى أخرى، قصد تأمين مواطن الماء للناس ثم الكلأ للإبل ، فابن بطوطة يسجل إعجابه واستغرابه من الدليل الذي استأجره، حيث كان أعور العين الواحدة، ومريض الثانية، لكنه كان أعرف الناس بالطريق، وقد استأجره ابن بطوطة بمائة مثقال، هذا يعني أن ركوب مخاطر الصحراء لا يتم إلا لمن له دراية تامة بمفاوزها و جنباتها[1].

خروج الحسن الوزان من مراكش ومروره بدرعة، يعني أنه مرّ من الطريق الغربي الذي يصل تكمدارت بتنبكتو مباشرة مرورا بمحطات أهمها لكتاوة وتغازى وتاودني[2] (الوثيقة 1). وعلى طول هذه الطريق حفر البدو الرّحل عدداً كبيرا من الآبار لشربهم وشرب مواشيهم، وعندما رحلوا عنها أصبحت سابلةً، وفي الشرع الإسلامي يوجد مفهوم "حق الشفة" إذ هو في الاصطلاح الفقهي ينصرف إلى شرب الآدميين وسقي بهائمهم، بغض النظر عن جنس الإنسان أو دينه أو وطنه[3]. ومع التطور الذي حصل في أوربا في مجال المواصلات البحرية، فإن معظم هذه الخطوط البرية الصحراوية انتقلت إلى شواطئ السنغال وخليج غينيا.

وحسب ما نعلم أنه باستثناء ابن بطوطة ما بين القرنين (السابع والثامن الهجريين) لم يسافر أحد من الرحالة إلى بلاد السودان، فكل الذين كتبوا عن بلاد السودان كالبكري والإدريسي وابن سعيد والعمري، اعتمدوا على شهادات التجار والموظفين في حين أن ابن خلدون استجوب فقيه غانة واستعان به في بعض الأحداث. أما ابن بطوطة فقد سافر إلى بلاد السودان في العام (752هـ/1352م) وأقام بمالي قرابة سنتين. لذلك نجد أن الحسن الوزان هو آخر من انطلق في رحلته إلى هذه البلاد في العام (917هـ/ 1511م) حيث دامت رحلته قرابة سنتين ونصف.

فمن هو الحسن الوزان ؟ وكيف تعرفنا على رحلته لدول أفريقيا جنوب الصحراء ؟ وكيف كانت علاقات المغرب مع هذه البلدان ؟ و ماهي الوظائف التي قام بها الحسن الوزان أثناء رحلته هاته ؟ أهي مقتصرة على البعثة السفارية مع عمه ؟ إلى أي حد طغت الأبعاد الفكرية والحضارية على توجهاته في هذه الرحلة ؟ كيف تم نسج هذه الأبعاد بين المغرب وهذه البلدان في العصر الحديث ؟

[1]–عبد الله التجاني، رحلة التجاني، تونس، المطبعة الرسمية، 1958، ص.111.

[2]–يظهر من خلال الخريطة الطريق الذي سلكه الحسن الوزان منذ خروجه من مراكش إلى حين وصوله إلى ممالك السودان الغربي، وهو ما يعرف عند الرحالة والمؤرخين بالطريق الغربي الذي ينطلق من مراكش مرورا بدرعة ولكتاوة وتغازى وتاودني "الصورة 1".

[3]–أحمد إد الفقيه، نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي شرعا وعرفا وقانونا، 2002، ط1، صص: 68–69.

الوثيقة 1: خريطة بلدان أفريقيا جنوب الصحراء

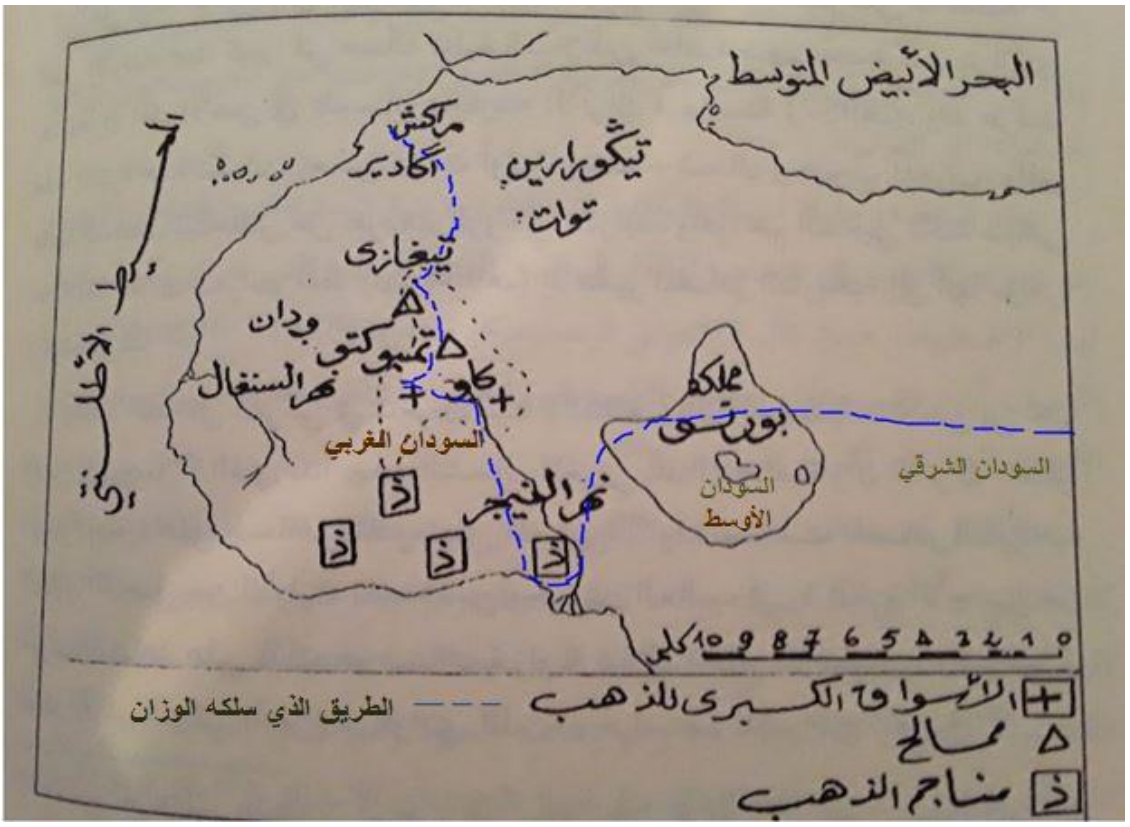

التعريف بالحسن الوزان

الحسن بن محمد الوزان الفاسي الأندلسي عاش في بداية حياته في بيئة إسلامية، حيث ينتمي إلى قبيلة بني زيات الزناتية، المتموقعة في أقصى غرب بلاد غمارة من سلسلة جبال الريف بالمغرب، أي بين ساحل البحر الأبيض المتوسط ومجرى وادي "لاَو" في أحواز سبتة و تطوان، عاشت أسرته حقباً من الزمن في الفردوس المفقود.

ولد الحسن الوزان بمدينة غرناطة قبل سقوطها في يد الاسبانيين، فاختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته بالضبط، فجعلها البعض في العام 901هـ/ 1495م والبعض الآخر جعلها في العام 906هـ/ 1500م، لكن كلا التقديرين لا يستويان لذلك رجح المرحوم محمد حجي ومحمد الأخضر اللذين ترجما كتابه "وصف أفريقيا" عن الفرنسية أن تكون ولادته حوالي 888هـ/ 1488م أي قبل سقوط غرناطة بنحو عشر سنوات.

انتقل الحسن الوزان في خضم الهجرات الأندلسية مع أسرته الصغيرة إلى فاس، فبدأ دراسته في جامع القرويين على يد أعلام القرويين آنذاك ومنهم الإمام محمد بن غازي المكناسي حيث يعتقد أن الحسن الوزان قرأ عليه بعضا من كتبه التي اشتمل عليها فهرسه المعنون ب "التعلل برسم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والنَّاد"[4] الذي كان يجيز به تلاميذه، حيث يحتوي على علوم اللغة وآدابها والعقائد والفقه والتصوف، والتفسير والقراءات والحديث والسير والحساب والفلك والمنطق وغيرها.

[4]–محمد بن غازي، فهرس التعلل برسم الإسناد بعد انتقال المنزل و الناد، تحقيق محمد الزاهي، الدار البيضاء، دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر 1979.

أهمية كتاب وصف أفريقيا للحسن الوزان

يعد كتابه "وصف أفريقيا" المرجع الوحيد الذي يؤكد بداية حياته العلمية حيث انتصب للشهادة مع عدول فاس الرسميين، وبذلك بدأ يجالس العلماء والقضاة والفقهاء في المدن والقرى خلال رحلاته الشهيرة، وهو ومع ذلك يعتبر كاتبا بارعا يحبر الرسائل تحبيرا، وينظم القصائد التي ينال بها العطايا الشخصية من الرؤساء، وأخيرا فهو يهتم بالحسبة إذ كان يستخلص واجبات بيت المال من القبائل. قرّب سلطان فاس آنذاك محمد الوطاسي المعروف "بالرتغالي" الحسن الوزان إليه ونظمه في سلك بلاطه، حيث أسند إليه مهام سياسية خطيرة في ظرف عرف فيه المغرب انقساما إلى مملكتين مملكة فاس ومملكة مراكش ، وتدخلا برتغاليا–اسبانيا لعدد من الثغور المغربية على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنتي[5].

هذه المهام السياسية التي اضطلع بها الحسن الوزان، والنشاط الدبلوماسي والتجاري لأسرته، هي التي دفعت به إلى القيام برحلات عديدة داخل المغرب وخارجه، حتى غدا كتابه الجغرافي زبدة تسجيلاته ومشاهداته التي دونها في مذكرات شبه يوميات.

ذكر الحسن الوزان قراءه بالرحلات التي قام بها مع والده وهو صغير، يضاف إليها الرحلات التسع التي جاءت في ثنايا كتابه وصف أفريقيا، ومنها رحلته الأولى إلى الشواطئ الغربية القريبة من فاس، ثم الرحلة الثانية إلى وسط المغرب حيث زار خلالها تادلا وتعرف على محمد القائم بأمر الله الذي بويع في سوس أميرا للجهاد في العام 916هـ/ 1510م بعد عام من التخطيط والتنظيم بمساعدة أولياء الجنوب في عاصمة الدولة آنذاك، حيث بقيت مدينة تيدسي لمدة ست سنوات عاصمة قبل انتقالها إلى مدينة تارودانت.

ثم الرحلة الثالثة إلى بلاد السودان الذي صحب فيها عمه الذي كان مكلفا في العام 917هـ/1511م بسفارة بين ملك فاس محمد الوطاسي البرتغالي وملك "سنغاي" محمد أسكيا الكبير، حيث انطلاقا في رحلتهما من مراكش عبر درعة وسلكوا في رجوعهما طريق سجلماسة متجهين نحو فاس.

يقول ليفي بروفنصال عن الحسن الوزان:

إن الصورة التي رسمها ليون الأفريقي (الحسن الوزان الفاسي) في كتابه "وصف أفريقيا" "لازالت أصولها شاخصة إلى الآن لم يغير الدهر منها شيئا كثيراً، وإن الناظر إليها اليوم سرعان ما يشعر وكأنه يرجع أدراجاً إلى عهود فاس القديمة، ويشاطر أهلها الحياة برهة من الزمان"[6].

شخصية الحسن الوزان

هل حدث انكسار في شخصية أو في المسار العلمي للحسن الوزان[7]؟ خاصة وأن البعض يشكك في عقيدته عندما قضى ثلاثين عاما في الأسر بإيطاليا؟ وبالتالي كيف تغلب على هذه الإكراهات؟

---

[5]–عبد الله الحاجي.–الدولة السعدية: آليات التطور ومظاهر التدهور: سوس بين 916–1510هـ/ 1015– 1609م منشورات أفريقيا الشرق 2013. ط1، ص 158–159.

[6]–ليفي، بروفنصال، مؤرخو الشرفاء. ص37.

[7]–يجب التفريق بين الحسن بن محمد الوزان وعمر بن محمد الوزان فهذا الأخير هو أبو حفص محمد الكماد الأنصاري القسنطيني المعروف بالوزان، قال عنه أحمد المنجور في فهرسته: "هو الفقيه العالم المتفنن المحقق الراسخ الصالح أبوحفص عمر الوزان، كان آية، يبهر العقول في تحقيق فنون المنقول والمعقول... أخذ عنه شيخنا محمد اليسيتني الأصلين والبيان وغيرها، وقرأ عليه "معالم الفخر" قراءة بحث وتحقيق (توفي قرب 960هـ) له تآليف عديدة منها: "الردّ على الشبوبية" و "البضاعة المزجاة" وحاشية على "شرح الصغرى" للسنوسي.

معلوم أن عائلة الحسن الوزان قد طردت من غرناطة فاستقرت بفاس، وهذا لا يطرح أي مشكل للوزان نظرا لأنه ولد بغرناطة وتلقى تعليمه بفاس، صحيح أنه قد عانى "نفسيا" مع الأندلسيين المطرودين آنذاك من منطلق الجماعة المسلمة المغلوبة على أمرها التي كانت تحت سلطة الإسبان.

وإذا كان المؤرخون قد اهتموا بوضعية المورسكيين بالأندلس، فإنهم لم يصلوا بشكل جلي إلى العناية بفكرهم لأن وضعيتهم كانت "مقلوبة"، وقد انتبه إلى ذلك أحمد بن يحيى الونشريسي الذي حاول في كتابه "المعيار المعرب والبيان المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب" إيجاد الحلول الفقهية لما عاناه الأندلسيون عندما كانوا تحت الحكم الأجنبي في الأندلس، وفي معرض التحدث عنهم كان يستعمل عبارة "المسلمين الذميين" أو "المساكين الذميين" مشيراً لتلك الوضعية "المقلوبة".

جاء في بعض فتاوى الشيخ أحمد الونشريسي أن بعض الأندلسيين: "ندموا على الهجرة بعد حلولهم بدار الإسلام، وسخطوا وزعموا أنهم وجدوا الحال عليهم ضيقة، وأنهم لم يجدوا بدار الإسلام التي هي دار المغرب... بالنسبة إلى التسبب في طلب أنواع المعاش على الجملة رفقا ولا يسراً ولا مرتفقا، ولا إلى التصرف في الأقطار أمنا لائقا..."[8]

وأضاف صاحب المعيار أن بعض الأندلسيين صرح أنه: " إن جاء صاحب قشتالة إلى هذه النواحي نسير إليه، فنطلب منه أن يردنا إلى هناك..."[9]

لكن جواب الونشريسي كان قطعيا في هذا الشأن ذلك:

"أن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة..."[10]

على أية حال فإن طرد الأندلسيين "المورسكيين" كان خسارة اقتصادية بل وحضارية بالنسبة لاسبانيا[11]، فقد كانوا صناعا مهرة ومحيطين بفنون الزراعة. ولا أدل على ذلك من إنشائهم لمعامل السكر في كل من تارودانت وشيشاوة ومراكش وغيرها بالمغرب.

لقد لجأت اسبانيا إلى هذا الطرد لأن المورسكي "غير قابل للإدماج، فاسبانيا لم تتصرف بدافع حقد عنصري بل بدافع من الحقد الحضاري وهو اعتراف بالعجز، فالمورسكي بقي على شاكلة أجداده، نفس الزي والدين واللغة والدار المنغلقة والحمامات العمومية... لقد حافظ على كل شيء".[12]

في الرحلة التاسعة التي انتقل فيها الحسن الوزان من البلاد الليبية ثم التونسية في طريق عودته إلى المغرب في العام 926هـ/ 1520م أبحر من تونس، لكن سوء الحظ أوقعه في أيدي القراصنة الإيطاليين فأسروه بالقرب من جزيرة "جربة" فاخذوه إلى نابولي حيث قدموه هدية إلى البابا ليون العاشر في روما، الذي كان من أعمدة عصر النهضة حيث عمل على إحياء العلوم والآداب والفنون، فوجد في الحسن الوزان عالماً مغربيا شابا، سرعان ما توثقت الصلة بينهما.

---

[8]–أحمد الونشريسي. –المعيار المعرب والبيان المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي وآخرون، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، 1981، ج2، ص 119.

[9]– الونشريسي، المعيار...، ج2، ص. 120.

[10]–الونشريسي، المعيار...، ج2، صص: 121–122.

[11]–أحمد الحجري "أفوقاي". –ناصر الدين على القوم الكافرين، نشره محمد رزوق، منشورات كلية الآداب، الدار البيضاء، 1987، صص: 111–113.

[12]–F. Braudel.–La Méditerranée et la monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, éd. Armand Colin, 2ème éd, 1966,P.129.

ماذا كان على الحسن الوزان أن يقوم به؟ وكيف يمكنه تحدي إكراهات الأسر في دولة مسيحية؟

لقد كان حتميا على الحسن الوزان أن يتقن سلوكين منفصمين، سلوك مع نفسه وهو العالم المغربي الذكي المسلم، وسلوك مع المحيط المهيمن، فتظاهر الوزان باعتناق المسيحية وحمل اسم البابا "يوحنا الأسد الغرناطي أو الأفريقي "Jean Lean L'Africain تسترا وتقيةً فتأقلم بسرعة مع البيئة المسيحية، وهو مورسكي فتح عينه في غرناطة بلغتها القشتالية الوثيقة الصلة باللاتينية.

لقد ثبت من خلال مؤلف الوزان "وصف أفريقيا" أنه كان مستمرا على إسلامه وعقيدته وكان يدافع عن الذات الثقافية ولم يُسلم بانهزامه الحضاري في كل ثنايا الكتاب، إذ كان يتحدث عن العادات والأعياد الإسلامية فينسبها إلى نفسه بقوله: "عندنا"

ولم يحدث أن نسب لنفسه شيئا من طقوس المسيحيين الدينية أو غيرها، بل نجده في كتابه دائم التلميح إلى العادات الاسلامية في المدن والقرى التي زارها الحسن بن محمد الوزان.

يشكل الحسن بن محمد الوزان الإنسان المورسكي الذي صارع خصمه المسيحي في غرناطة على نفس الأرضية قبل هجرته إلى المغرب، لذلك فهو قد وعى الدرس بأكمله بوجوده في نفس الجو المسيحي والواقع الحتمي، الذي تغلب عليه باشتغاله بتدريس اللغة العربية للخاصة من رجال الكنيسة في روما ونابولي ولعامة الطلبة في مدرسة بولونيا الشهيرة في عصر النهضة الأوربية.

ظروف بلاد السودان

في العام 917هـ/ 1511م خرج الحسن الوزان من مدينة فاس في رحلته إلى بلاد السودان صحب خلالها عمه الذي كان مكلفا بسفارة دبلوماسية بين ملك فاس محمد الوطاسي البرتغالي، وملك سنغاي محمد أسكيا الكبير.

سلك الوزان في رحلته الطريق الرابطة بين مراكش وبلاد السودان مروراً بدرعة ولكتاوة ثم تغازى ثم تاودني فتنبكتو وصولا إلى ممالك بلاد السودان. إن طرق المواصلات عبر الصحراء الذي حدثت فيه هذه الرحلة، كانت تشغل المجال الجغرافي لشمال أفريقيا، حيث أكّد محمد الغربي في كتابه [13] المسافات التي تقطعها القوافل التجارية من مراكش إلى تنبكتو[14] خلال خمسة وستين يوما أو ثمانين يوما بمسافة تقدر بألفين وأربعمائة وستين كيلومترا. هنا يمكن أن نتساءل: هل كان الوطاسيون على صلة بدول أفريقيا جنوب الصحراء منذ بداية دولتهم؟ وهل كانت للسلطان الوطاسي محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي أهداف غير معلنة من خلال إرسال هذه السفارة إلى بلاد السودان لربط علاقات ديبلوماسية مع ملك سنغاي محمد أسكيا الكبير؟

على الرغم من المصاعب التي يواجهها الرحالة التجار في رحلاتهم إلى بلاد السودان، والتي يبينها ابن خلدون بقوله " المغامرة المجهلة لا يهتدى فيها للسبيل، ولا يمر الوارد ماعدا بالدليل الخبير من الملثمين الظواعن بذلك القفر، يستأجره التجار على الدراية يسهم فيها بأوفى الشروط" [15] فإن هذه الرحلة السفارية إلى بلاد السودان كانت تنظم بشكل دقيق، فهي قافلة مخزنية تستدعي الشروط الكاملة من رئيس ودليل وحراس ومحاربين الذين يشكلون الطليعة والمؤخرة، فهم مسلحون درءاً للأخطار التي يواجهونها في طريقهم خاصة قطاع الطرق، وغالبا ما تتزامن الرحلات القفلية التجارية مع الرحلة السفارية فتصبح على شكل: "مدينة آهلة تتحرك"[16]

---

[13]–محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد، 1982، ص. 458.

[14]–تنبكتو: تكتب (تين بكت) هي ملتقى القوافل التجارية البرية القادمة من شمال وغرب أفريقيا وكذلك الآتية من تودني، ازدهرت فيها الحركة الثقافية ، يسكنها العرب الطوارق.

[15]–عبد الرحمان بن خلدون، العبر و ديوان المبتدأ والخبر...، ج6، ص79.

[16]–زهرة، طموح، تنظيم القافلة خلال القرن 19م، التجارة والمجتمع والدولة عبر التاريخ، ج2، 1992، ص299.

علاقات المغرب مع بلدان أفريقيا جنوب الصحراء

لنا أن نتساءل تساؤلات مشروعة من قبيل كيف كانت امتدادات العلاقات الاقتصادية والحضارية والاجتماعية بين المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء في العصر الحديث؟

وهل بقيت هذه العلاقة متواصلة بدون إكراهات؟ أم أن الظروف الداخلية للمغرب آنذاك حتمت التدخل في هذه المناطق؟ وإلى أي حد استطاع أحمد المنصور السعدي استمالة علماء السودان؟

نعلم أن المصادر الوسيطة[17] قد ذكرت أن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة قد اقتحم بلاد السوس الأقصى وبلاد السودان" وأصاب من الذهب والفضة والسبي أمراً عظيما... وسبى من قبائل البربر قبيلة يقال لها مسوفة في طريق السودان" [18] وهذا يعني أن الصحراء لم تكن حاجزا للتوغل فيما وراء نهر النيجر[19]. ولقد كانت نشأة مملكة غانة بأفريقيا جنوب الصحراء سببا في التلاقح بينها وبين المغرب الصحراوي، منذ أمد بعيد خاصة بعد استيلاء المرابطين على "غانة"[20] وبقيت العلاقات الاقتصادية إلى العصر الحديث الذي شهد نقلة هامة على مستوى المبادلات التجارية، حيث كان المغرب يصدر لأفريقيا جنوب الصحراء مجموعة من المواد كالحناء والتاكوت والملح والسكر والصمغ العربي، في حين كان يستورد منها زيت النخيل وجوز الهند والذهب وغيرها[21] حيث كانت مدينة كومبي[22] ملتقى التجار القادمين إليها من كل الأقطار، ومن اللافت أن القوافل كانت تغادر ملاحة تغازى محملة بالملح وترجع مملوءة ذهبا حسب البكري[23]

لن أطيل في إظهار التكامل الحاصل في العلاقات بين المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء، لكن هذه الإضاءات القليلة هي التي تعتبر تمهيدا وفرشا لتقاطعات الأبعاد الفكرية والحضارية، خاصة بعد تبادل السفارات بين المغرب وهذه البلدان في العصر الحديث زمن حكم الدولة الوطاسية التي أرسلت وفدا مغربيا ديبلوماسيا شكل عم الحسن الوزان القطب الرئيس فيه.

هذه البلدان في أفريقيا جنوب الصحراء دخلها الإسلام منذ عهود قديمة، يدل على ذلك التأثيرات الدينية والثقافية والحضارية، إذ ساهمت كل هذه العوامل في انبعاثها حضاريا وولوجها إلى ساحة الأحداث في العالم[24].

لذلك أصبح الإسلام هو الدين المنتشر في هذه الأصقاع، وهو ما دفع السكان يعتنقونه ويتخلون عن العادات والتقاليد الوثنية، ودفن الطوارق للميت في الصحراء خير دليل على ذلك[25].

كما أن قبول هذه القبائل الانصهار في بوتقة واحدة على المستوى الإثني جعل السلالات تختلط بالمصاهرة ووحدة العقيدة[26]، ومنذ

---

[17]–ولد السالم حماه الله. تاريخ قبائل البيضان...، (م. م)، ص.26.

[18]–ولد السالم حماه الله، (م. م)، ص.26.

[19]–عبد الوهاب الشكري، لمحات من التاريخ الاقتصادي لدرعة، ص41.

[20]–يوسف نصر، تاريخ غرب افريقيا، ص16.

[21]–عبد المجيد أمريغ، المجال الصحراوي المغربي من خلال النصوص الأدبية القديمة، مرجع سابق، ص.222.

[22]–كومبي: هي قبة صالح، كانت عاصمة مملكة غانة.

[23]–أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2013، ص260.

[24]–عبد الله بازينة، انتشار الاسلام في افريقيا جنوب الصحراء، ص. 12.

[25]–ستيفان كزيل، تاريخ شمال افريقيا القديم، م. س، ج6، ص183.

[26]–كزيل، مرجع سابق، ج1، ص231.

ذلك الحين والاحتكاك المادي بين المغرب وبلدان أفريقيا جنوب الصحراء يزداد تجذرا على مستوى العقيدة، حيث أنشئت مدارس قرآنية وأصبحت "غاو وكيكيا وتنبكتو" من أهم المراكز العلمية والفكرية، إضافة إلى أهميتها في التجارة البينية[27]. وهو ما ساعد على ظهور الكتابة والمؤلفات وتشجيع العلماء العرب الرحالة للتأليف في مختلف فنون المعرفة[28]. في هذه الأثناء ظهر حكام سودانيون بلغوا شأوا كبيرا في تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتمسك بتعاليم الاسلام الصحيح، انطلاقا من عهد الملوك الأسكيين خاصة الملك أسكيا محمد الحاج (898-935هـ/ 1493-1528م).

كانت مملكة سنغاي عبارة عن تجمع سكاني صغير، لكن تطورت في ظرف وجيز إلى إمبراطورية مترامية الأطراف واستولت على السودان الغربي بأكمله، وصلت إلى أوج ازدهارها ورخائها في عهد الملك أسكيا محمد الذي حج البيت الحرام لأداء الفريضة، وقال له الخليفة العباسي: "يا هذا أنت الحادي عشر من الخلفاء...لكنك جئتنا ملكاً، والمُلك والخلافة لا يتفقان..."[29]. وبعد ذلك ترك أسكيا الحاج محمد كل مظاهر السلطنة حتى حاز مقومات الخلافة وصفاتها[30] وهو بذلك سيُصارع العثمانيين والسعديين على "المشروعية والخلافة"[31] الأمر الذي جعل أحمد المنصور السعدي يوجه رسالة إلى إسحاق أسكيا الثاني تصور المنصور على أنه: "المأمور والمكلف" بتوحيد كلمة المسلمين، وذلك: "لما اختصنا الله به من إمامة الجماعة... و وراثة الأرض ومن عليها"[32]. وهو بذلك يميز نفسه عن العامة، إذ "الناس في هذا الأمر تبع، ونحن المتبعون"[33].

وبهذا تكفل المنصور في تدخله في بلاد السودان بإصلاح الأوضاع فيها، وإزالة المحرمات والكبائر خاصة بعد وفاة أسكيا الحاج محمد حيث: "فسدت في تلك البلاد الأحوال وظهر الاختلال وتبدلت الشرائع، فلم يُضرب قط بين اثنين منهم عقد نكاح... ولا وقع التزاوج على وجه مباح..."[34].

كما أن مدينة تنبكتو وصفها المؤرخون بأنها من المدن التي:

"لا نظير لها من بلاد السودان إلى أقصى المغرب مروءة وتعففا وصيانة وحفظ عرض ورأفة بالمساكين والغرباء وتلطفا بطلبة العلم وإعانتهم..."[35].

وزاد أيضا:

"...وسكن فيها الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلد..."[36].

وقال آخر: "...كانت تنبكتو قبل الحملة وتغريب آل أقيت عنها في غاية الحسن والجمال، وإقامة الدين، وإحياء السنة، بها ماشئت

---

[27]-يوسف، روكز، افريقيا السوداء: سياسة وحضارة، م. س، ص.56.

[28]-أحمد الشكري. الذاكرة الافريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن 18م (نموذج بلاد السودان) منشورات معهد الدراسات الافريقية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 2010م، ص. 29-30.

[29]-محمود، كعت، تاريخ الفتاش...باريس، نشر هوداس، 1964، ص. 12.

[30]-كعت، المرجع السابق، ص. 12.

[31]-عبد الله الحاجي، الدولة السعدية، م م، صص 239-240.

[32]-الفشتالي، مناهل الصفا... مصدر سابق، ص.123.

[33]-الفشتالي، مناهل... ص 124.

[34]-عبد الهادي التازي، المغرب... ص148+بنعلة، مجموعة رسائل سعدية، ص187.

[35]-عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، نشر هوداس، باريس، 1964، ص179.

[36]-السعدي، تاريخ السودان، م. س، ص. 20-21.

من دين ودنيا، وجيران تنافسوا في المعاني..."[37] ووصفها الوزان نفسه بأنها:

"...كعبة الثقافة الإسلامية والعلوم، وبها نهضة علمية وثقافية بفضل أساكي سونغاي وهي حافلة بالفقهاء والقضاة والأئمة، وإن تجارة الكتب تفوق كل تجارة في ربحها، ولا توجد سلع تضاهيها في الربح سواء كان الكتاب منسوخا في نفس البلد أو مستورداً من البلاد الإسلامية ...يدفع الملك أسكيا محمد إلى القضاة والأئمة مرتبا حسنا، ويعظم الأدباء كثيرا..."[38].

ويضيف الناصري: "... كان بنو أقيت التكْرُوريون من أهل مدينة "تنبكتو" ممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان ديناً ودنْيا بحيث كثر فيهم العلماء والأئمة والقضاة..."[39].

وقد كان السكان أهل سُونْغاي "...يعرفون بمسلمي الدّم أي إضافة إلى إسلامهم طوْعاً، فقد جادوا بدمائهم لنصرة الدين أيضا..."[40] لكن بعد تدخل المنصور السعدي في هذه البلاد لم يكن هناك مبرر واضح للتدخل لأن البلاد إسلامية، فآحتار الفقهاء في تبرير أجوبتهم عن هذا الغزو، اذ "...إن المحن ترادفت على السلطان أحمد المنصور من كل وجه، حتى قيل إنه ندم على ما صدر منه تجاه علماء السودان..."[41].

دخول الحسن الوزان إلى بلاد السودان

عند أول دخول للحسن الوزان إلى بلدان أفريقيا جنوب الصحراء تعرض للحديث عن هذه البلاد في إطار رحلته التي همت بعض الممالك، وعجزه عن الوصول إلى البعض الآخر نظرا "لبعدها عن تجارتنا..."[42] كما يقول.

تحدث الوزان عن خمس عشرة مملكة من أرض السودان التي زارها وهي "ولاّته وجيني ومالي وتنبكتو وكاوُو وكُوبَرْ وأغادس وكانُو وكْلاتسنية وزكزك وزنفرة وبورنو وكاوكا والنوبة"، وهي الممالك التي تتوزع على المجال الجغرافي لحوض نهر النيجر، حيث تمر بها الطرق التجارية خاصة الخط الشرقي الواصل إلى مصر بين درفور وأسيوط الذي لم يكن مؤمنا إلى حدود أواخر القرن السادس عشر الميلادي. هذه الممالك التي زارها الحسن الوزان انضمت في شكل اتحاديات على رأس كل واحدة ملك مستقل، منها مملكة "تنبكتو" وهي أكبر هذه الممالك ثم مملكة "بُورْنُو" وهي صغيرة المساحة ومملكة "كَاوُو" وتشغل الباقي.

عندما بدأ الحسن الوزان بتدوين رحلته هاته اعتمد على أقوال الجغرافيين والمؤرخين الذين ذكروا أصل السكان البيض في أفريقيا جنوب الصحراء، حيث يرى البعض أنهم ينتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا قديما إلى أفريقيا حين طردهم الاشوريون، ويزعم آخرون أن أصلهم راجع إلى السبئيين أي "الحِمْيَريّين" الذين كانوا يعيشون في اليمن قبل أن يطردهم الاشوريون أو الأثيوبيون منها، ويدعي فريق ثالث أنهم هاجروا من أطراف آسيا تحت ضغط شعوب معادية لهم، فاستقروا باليونان وبعدها لجأوا إلى أفريقيا.

أما السكان السود فإنهم جميعا من نسل "كوش بن حام بن نوح"، مهما يكن من أمر فإن الحسن الوزان اعتذر عن إعطاء المزيد من الافتراضات لأنه منذ عشر سنوات لم يطلع على أي كتاب في التاريخ الإسلامي لكي يعتمده.

---

[37]– محمود كعت، تاريخ الفتاش...مم ، ص.179.

[38]–الوزان، وصف افريقيا، م. س، د2، 167.

[39]–أحمد الناصري الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى، ج5، ص129.

[40]–السعدي، تاريخ...، م. س، ص 3.

[41]–السعدي، تاريخ...، م. س، ص. 202–203.

[42]–الوزان، وصف أفريقيا ج1، ص. 29.

لكن كيف وجد الحسن الوزان بلدان أفريقيا جنوب الصحراء؟ وما هي الوظائف التي قام بها أثناء رحلته هاته؟ وهل كانت الأبعاد الفكرية والحضارية هي المتحكمة في توجُّهاته؟ أم كان له دور في البعثة السفارية مع عمه إلى بلاد السودان؟

بدأ الحسن الوزان بوصف مدينة تنْبكْتُو التي كان يعتقد أن بناءها كان على يد منسّا سليمان في بداية القرن السابع الهجري/13م، حيث اتخذ أمراء "المانْدنْغُو" هذا اللقب "منسّا" الذي يعني السلطان، لكن عبد الرحمن السعدي فصّل في الكلام عن تأسيس تنبكتو حيث أرجعه إلى القرن الخامس الهجري على أيدي "التوارق" أو "الطوارق"، كما بين أنها بلدة طيبة زكية، حكمها أسكيا الحاج محمد وفي عهده قصدها الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال، من كل بلاد من أهل "فزان وغدامس وتوات ودرعة وتافلالت وفاس وسوس"[43].

وكانت تنبكتو تعج بالعلماء والصلحاء والقضاة منهم القاضي محمود آل أقيت الإمام العالم التقي الورع الشهير في علم العربية الذي كان يُقْرِئ كتاب الشّفا للقاضي عياض في شهر رمضان في مسجد سنْكري[44] الذي بُني بالحجَر المركب بالطين والجير على شكل لِبَنَاتٍ قام بتصميمه مهندس أندلسي، وقصر كبير بني من طرف هذا المعلم[45] لسكنى الملك، تحيط به دكاكين للصناع والتجار والنسّاجين.

الحسن الوزان هو شاهد عيان استقر في أول محطة له بمدينة تنبكتو فلاحظ أن النساء محتجبات، إلا الجواري اللائي يقمن بعملية البيع والشراء يُوجدن وسط السوق، وقد كان الملح في "تنبكتو" يساوي ثمانين مثقالا، والتجار يقومون بتعويضه سلعة بسلعة في إطار المقايضة والتجارة الصامتة. والملك دائما يُحب النظام والأبهة، خاصة عندما يتنقّل من مدينة إلى أخرى، إلا أن هذه العناصر السكانية المتعايشة سواء السكان الأصليين أو الأجانب من شمال أفريقيا لا يشكلون عنصرا إزعاج للملك، كما يُمثله العنصر اليهودي الذي يُمنع من الاستقرار داخل المدينة، ربما للمعاملات الربوية التي يستعملونها في معاملاتهم التجارية، وقد كان الملك يحرص على تطبيق المبادئ الإسلامية إذ يستغرق أموال التاجر الذي يتعامل مع أهل الذمة خاصة إذا كان أجنبيا، حيث تستعمل في المعاملات التجارية قطع الذهب الخالص بدل العملة المسكوكة[46]، وهذا ربما ما جعل العنصر اليهودي يستقر أساساً في المراكز التجارية التي تمر منها أو تنتهي إليها قوافل الذهب الرابطة بين شمال أفريقيا وبلاد السودان[47] صحيح أن اليهود زاولوا عدة أنشطة صناعية وجمع الجبايات والمكوس[48]، حيث أكد الفشتالي أنه : "قُطعت معاقدة الكراء فيها (معاصر السكر)...لطائفة من أهل الذمة"[49].

وقد أكدنا في دراسات سابقة الدور المحوري الذي كان يلعبه اليهود كوسطاء في التجارة بين المغرب وبلاد السودان[50] وكان للعائلات اليهودية نفوذ أوسع لدى أحمد المنصور وبعد وفاته، وهذا ما جعل الفقهاء والعلماء يؤاخذونه على اتصال اليهود الدائم ببلاطه[51]

[43]–السعدي، تاريخ السودان، م. س، ص. 20–21.

[44]–السعدي، تاريخ ...، م. س، ج2، ص29.

[45]–الوزان، وصف افريقيا، م. س، ج2، ص. 165.

[46]–الوزان، وصف افريقيا، م. س، ج2، ص. 167.

[47]–محمد حجي، الحركة الفكرية...ج1، صص: 267–268.

[48]– الوزان، وصف...، م. س، ج1، ص. 78 و ص 219.

[49]–عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا...م. س، ص 210.

[50]–عبد الله الحاجي، الدولة السعدية: آليات التطور...م. س، ص 136.

[51]–محمد حجي، الحركة الفكرية...ج1، ص 271.

خاصة وأن المنصور قد "أخرج يهوديا من الأسْر من جزيرة "مالطا" بمال عظيم"[52].

وقد ألف الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي كتاب: "مصباح الأرواح في أصول الفلاح" انتقد فيه: "ما عليه يهود هذا الزمان... من الجور والطغيان، والتمرد على الأحكام الشرعية وقد حلّت دماؤهم وأولادهم ونساوهم ولا ذمة لهم"[53] إلا أن الونشريسي أكد أن: "ظلم أهل الذمة لا يجوز شرعا...وقد تضافرت الأحاديث النبوية بالنهي عن ظلم أهل الذمة، فلا سبيل إلى استباحته"[54].

تعود أهل تنبكتو على المرح، والتجول في المدينة ليلاً وهم يعزفون على آلات الطرب ويرقصون، وهي التقابلية التي وضحها ابن خلدون في العمران خاصة في مستواه الأول حيث أكّد أنه" "قد رأينا خُلُق السودان على العموم الخفّةُ والطيشُ وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص... موصوفين بالحمق في كل قُطر..."[55].

الحسن الوزان الذي وصل السودان أواخر العام 917هـ بدأ يتنقل عبر حوض نهر النيجر فوصل إلى مدينة "كَبْرة" التي تقع على فرع من هذا النهر ربما في العام 918هـ/ 1512-1513م، وهي لا تبعد عن مدينة تنبكتو إلا ب : سبع كيلومترات على طريق البر، وسبعة عشر كيلومترا عبر القناة الموصلة إلى تنبكتو، لاحظ الوزان أن السلع والبضائع كانت تنقل بواسطة السفن إلى غينيا ومالي، وتنبكتو بدورها تتلقى من "كبْرة" نصف المواد الغذائية، لكن أمراض الحمى تنتشر فيها نظرا لكثرة البعوض.

أما مدينة كَاغُو فهي بعيدة من تنبكتو باتجاه الجنوب الشرقي، وهي أكثر تحضرا من الثانية يأتي إليها السكان السود من كل صوب محملين بكميات من الذهب لشراء المواد الآتية من المغرب، وغالبا ما ينفقون النصف أو الثلثان، يكثر فيها اللحم والخبز، لكن الخمر والفواكه منعدمان، وهناك سوق للنخاسة يباع فيه عدد كبير من الرقيق ذكوراً وإناثاً. حيث تساوي الفتاة والفتى في سن خمس عشرة سنة نحو ستة مثاقيل. أما الملِكُ في هذه المدينة فله قصر خاص مُعدٌ لعدد هائل من النساء والجواري والعبيد، للقصر بابان، الباب الخاص والباب العام تتوسطه ساحة كبيرة على جوانبها رواق مخصص للإستقبالات. أما الجانب الديني فيشكو من الجهالة الجهلاء على حد تعبير الوزان[56]، حيث نجد ابن خلدون يؤكد هذه الظاهرة بقوله: "...لا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الأقل النادر... مثل أهل مالي وكُوكُو والتكْرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بدين الإسلام..."[57]

أما مملكة كُوبرْ فهي تقع شرق مملكة كاغُو، كانت في غاية التحضر بها صناع مهرةٌ من نسّاجي القماش، وتجار من الأجانب، لذلك ازدهرت الحياة الاقتصادية في هذه المدينة التي زارها الوزان في بداية العام 919هـ/ 1513م، في حكم أسكيا الحاج محمد[58] الذي ولّى عليها واليا يثقل كاهل السكان بالضرائب، وهو ما أكده السعدي في تاريخه[59] إذا كان السكان يحققون أرباحا طائلة من معاملاتهم التجارية.

أما مملكة ولاَتةَ فهي أقل هذه الممالك شأنا حيث حدثت هجرة ارتدادية نحو تنبكتو وكاغو نظرا لقلة الموارد الفلاحية والتجارية، يلثم

---

[52]-أحمد بن القاضي. المنتقى المقصور...م. س، ج1، ص364.

[53]-محمد المغيلي. مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للتوزيع الجزائر 1968، ص16.

[54]-أحمد بن القاضي. المنتقى المقصور...م. س، ج3، صص.215- 222.

[55]-عبد الرحمان بن خلدون. المقدمة، م. س، ج1، ص 68.

[56]-الوزان، وصف...م. س، ج2، ص. 170.

[57]-ابن خلدون، المقدمة، م. س، ج1، صص: 34- 35.

[58]-الوزان، وصف...م. س، ج2، ص171.

[59]-السعدي، تاريخ السودان، م. س، ص. 68.

النساء والرجال وجوههم، فلا تجد حاشية ولا قضاة، حيث يعيش الناس في فقر مدقع[60]. يتحدث السكان اللغة العربية اليوم، أما الوزان فقد أكد أنهم كانوا يتحدثون لهجتهم المحلية.

بانتقال الحسن الوزان خلال هذه الرحلة إلى الأطراف الغربية من أفريقيا جنوب الصحراء، توقف في مملكة "غينيا" "كناوة" ليصور لنا امتدادها على طول نهر النيجر وعلى المحيط الأطلنتي. لاحظ الوزان خلال مُقامه بها الفلاحة المزدهرة والتجارة مع تجار بلاد البربر الذين يحملون معهم الثياب الأوربية الملونة والنحاس والسلاح (الخناجر) مقابل العملة المحلية التي هي الذهب غير المسكوك، وأهل هذه المملكة متحضرون يلبسون لباسا حسنا وهم ملثمون بلثام أزرق أو أسود أما الفقهاء والأئمة فيتلثمون بلثام أبيض وهي تقيم علاقات تجارية مع تنبكتو.

أما مملكة مالي التي زارها الحسن الوزان فهي تمتد على طول مجرى أحد روافد نهر النيجر،وهي متاخمة لمملكة غينيا، إلا أنها أكثر سكانا وتضم ستة آلاف كانون وعاصمتها مالي "أو "مَل" –حسب السعدي في تاريخه– وهي أكثر الممالك في أفريقيا جنوب الصحراء استقطابا للصناع والتجار المقيمين والطارئين الذين أصبحوا أغنياء بفضل تجارتهم، ويزودون تنبكتو وغينيا بالعديد من المنتجات، لهم أساتذة يدرسون مختلف العلوم في المساجد، نظرا لأنهم السابقون إلى اعتناق الإسلام الذي دخل مع الدعوة المرابطية.

لما ذهب الحسن الوزان إلى مملكة بورنو وجد التجار مستائين لأن الملك لا يدفع لهم ثمن البضاعة التي باعوها له إلا بعد ثلاثة أشهر، إذ كان يغير على جيرانه فيأسر الكثير من العبيد لكي يَدفع مقابل كل فرس خمسة عشر أو خمسة وعشرين عبداً. ويذكر الوزان أنه رأى كل ما يجهز به الملك خيله، من ركائب وأعنة كلها من الذهب الخالص وحتى سلاسل كلاب الملك هي من الذهب،ويظهر أن الملك كان بخيلاً يفضل أداء الثمن بواسطة الرقيق على أن يدفعه ذهبا، وقد أكد الوزان أنه يصعب رسم حدود مضبوطة لهذه البلاد، وهو ما حدث له بالضبط، لأنه كما قال لم يقض في هذا الإقليم أكثر من شهر تقريبا.

دخل الوزان مملكة كاوكا التي تتاخم بورنو غربا وحدود مملكة نوبيا شرقا، إلى تخوم مصر، حيث لاحظ عدم وجود حضارة ولا آداب إسلامية ولا حكومة تنظم شؤون البلاد، لكن مع ذلك فقد لاحظ غنى السكان نظرا لاهتمامهم بالتجارة مع مصر وما والاها، ويؤكد الوزان أنه أقام عند ملك هذه البلاد "كاوكا". وكان حاضراً[61] عندما وفد عليه رجل من دمياط وأهدى إليه فرسا في غاية الجمال وسيفا تركيا وبندقية، وبعض المرايا الجميلة، وسبحات من المرجان وبعض السكاكين يقدر ثمنها كلها في القاهرة بخمسين مثقالا، فأعطاه الملك مقابل ذلك خمسة عبيد وخمسة جمال وخمسمائة مثقال سكة البلاد (الذهبية) بالإضافة إلى نحو مائة من أنياب الفيل العاجية.

عند حديثه عن مملكة النّوبَة ركّز الوزان كلامه على موقعها الجغرافي حيث يخترقها نهر النيل، ويبلغ عدد كوانينها عشرة آلاف كانون، بها مدينة دُمْقَلَة يسكنها سكان أغنياء متحضرون، يزاولون تجارة القماش والسلاح والبضائع المختلفة.

وعلى البحر الأحمر يؤكد الوزان وجود مدينة عظيمة لعلها مدينة "عيداب" التي ذكرها ياقوت الحموي، وهي تقابل مباشرة ميناء جدة. وقد ذكر الوزان في معرض حديثة عن مملكة النوبة أن هذا هو كل ما استطاع أن يكتبه ملخصا عن بلاد السودان التي زارها في العام 917هـ/ 1511م، ذلك أن هذه الممالك جنوب الصحراء كل واحدة تشبه الأخرى في طبيعة البلاد والحضارة والعادات وأسلوب العيش.

لقد كان هدفنا من خلال بسط الكلام عن رحلة الحسن الوزان إلى دول أفريقيا جنوب الصحراء هو الوقوف على التقاطعات التي

[60]–الوزان، وصف...م. س، ج2، ص162.

[61]–الوزان، وصف...م. س، ج2، ص. 179.

همت الجوانب الفكرية والجوانب الحضارية التي نسجت العلاقة بين المغرب وهذه الدول الأفريقية فهل بالفعل كانت رحلة الحسن الوزان إلى هذه البلدان ذات طبيعة سفارية؟ وما هي التلميحات التي تبين أن الوزان قضى هذه الفترة مع عمه في بلاد السودان؟ وهل كانت اهتمامات الوزان خلال الرحلة دبلوماسية أم تحدتها للجوانب الاقتصادية؟ وإلى أي حد مثلت رحلة الوزان إلى هذه الدول روابط حضارية بين المغرب ودول أفريقيا جنوب الصحراء؟

فعلا تمت رحلة الحسن الوزان إلى دول أفريقيا جنوب الصحراء. لكن لنا أن نتساءل كيف كانت وضعية هذه الدول آنذاك؟ وما هي نوع العلاقات التي ربطت بينها وبين المغرب الوطاسي؟ وكيف كان التنافس حول "الولاية العظمى" أو "الخلافة" بينهما؟ على الأقل في عهد الدولة السعدية؟ وكيف كانت استتباعات ضم هذه البلدان إلى المغرب؟

اعتمد قيام دول أفريقيا جنوب الصحراء على مجموعة من الأسس، من ضمنها عائدات التجارة الصحراوية وغيرها، لذلك فموقعها الجغرافي القريب من مناجم الذهب العديدة مكنها من التحكم في أهم محاور التجارة بعيدة المدى المعتمدة على القوافل التجارية، إضافة إلى المواد التي كانت تتوفر عليها هذه الدول كأنياب الفيلة (العاج) وبيض وريش النعام والعبيد، إذ كانت تنتشر الأسواق العامة على طول الخط التجاري الذي يربط المغرب بهذه الدول[62].

معلوم أن الدولة الوطاسية في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي اهتمت بهذا النشاط الحيوي لذلك ربطت علاقات دبلوماسية وتجارية في نفس الآن، لكن المصادر لا تسعفنا في ما إذا كان هذا الاتصال يحدث بين هذه الدول في إطار من الاستقلال السياسي لكل كيان؟

صحيح أن التجارة خلال هذا القرن ركزت على الذهب والعبيد لما كانت تدره من أرباح على التجار، حيث وضح البكري هذه الوضعية في معرض حديثه "تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفع الناس وأكثرهم أموالاً لبعد طريقهم ومشقتهم واعتراض الغارة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش، لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن معلومة يهتدي إليها أدلاء الركبان فلا يركب خطر هذا الطريق إلا الأقل... فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء، وكذلك سلعنا لديهم... ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك"[63]

لقد استوعب أهل السودان أهمية الانخراط في التجارة الصحراوية، فحرصوا منذ بداية اتصالهم بالتجار المسلمين على تثمين هذه العلاقة وتأصيلها، وبلغ هؤلاء درجة من التقدير والاحترام من طرف هذه الشعوب، حتى إن ملوك السودان كانوا "يستعينون بهم في تسيير دواليب الحكم"[64]

وقد رأى بعض الرحالة في هذه الأثناء بأودغشت "صكا في مستحقات تاجر من تجار أودغشت لآخر من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار وما رأيت ولا سمعت بالمشرق بهذه الحكاية شبها ولا نظيراً".[65]

لا نعرف بالضبط حيثيات هذه السفارة التي أرسلها الوطاسيون إلى بلاد السودان في عهد محمد البرتغالي، لأن المغرب كان يعرف في هذه المرحلة مشاكل بنيوية تتمحور حول الوضع العام الذي فرضه البرتغاليون على الشواطئ المغربية والتدخل في محاصرة مدن داخلية كمراكش وفاس.

---

[62]–عبد الله الحاجي، الدولة السعدية..، م م، ص 240–241.

[63]–البكري. المسالك والممالك، درا الغرب الاسلامي، بيروت، 1992، ص178.

[64]–ابن خلدون، م م، ج6، ص. 315.

[65]–Mauny (R). Tableau géographique de l'ouest Africain, Dacar, 1961, P. 56.

لا تهمنا السفارة الآن بقدر ما تهمنا رحلة الوزان إلى مملكة كاغو التي يقول عنها الوزان نفسه بأنها أكثر تحضرا من تنبكتو، حيث يأتي إليها سكان هاته الممالك السودانية محملين بكميات كثيرة من الذهب لشراء المواد الآتية من المغرب... وهناك سوق للنخاسة يباع فيه عدد كبير من العبيد ذكورا و إناثا[66].

وقد ذكر صاحب "المناهل" وصفا دقيقا لهذه البلدان جنوب الصحراء وخيراتها:

"ما شئت من مدن قاهرة، وقرى متراصة ومروج نظرة وأسواق بالخلق والنعم زاخرة... وارض كرم الله تربتها وأبان فضلها بما اختصها به من معادن الذهب الذي به قوام العالم، وأس الملك وبناء المجد فمن ملكها ملك الأرض"[67].

هذا الثراء هو الذي أدى إلى تكوين سلطنة إسلامية بلغت دولة آل أسكيا فيها شأنا كبيراً فقد أسسوا دولتهم على يد محمد اسكيا المعروف بأسكيا الكبير، ثم خلفه أبناؤه في حكم البلاد ابتداء من العام 1583م حيث دخلوا في صراعات عقيمة فيما بينهم وهو ما انعكس سلباً على مملكتهم: "ذلك أنه تم فساد حكمهم وقطع سلك نظام دولتهم، وقد ظل ذلك قائما إلى أن وصلت محلة أهل مراكش"[68].

وبمجرد أن دخل السعديون مدينة فاس، واستتب لهم ملك البلاد، أخذ محمد الشيخ يبحث عن موارد إضافية لخزينة الدولة إذ: "كان سيداً مطلقا في كل ما يملكه رعاياه، ولم يكن باستطاعة أحد أن يعتبر نفسه مالكاً لأي شيء سواء كان مالا أو ربعاً"[69].

هناك تساؤلات بنيوية عديدة تشغل بالنا وسائر الباحثين من قبيل هل بلدان أفريقيا جنوب الصحراء هي ملك لأصحابها؟ هل فتحت هذه البلدان عنوة أم صلحا؟ أم أسلم عليها أهلها؟ أم أن أرضها خالصة لأهلها لا صلح فيها ولا عنوة؟ وهل إرسال السفارة من طرف محمد البرتغالي الوطاسي إلى بلاد السودان كانت من منطق التعامل مع الأنداد؟ وبالتالي هل كان تعامل السعديين هم أيضا مع أهل هذه البلاد تحكمه العلاقات الودية، أم تبدلت بمجرد صعودهم للحكم؟ ثم كيف ومتى نسجت الأبعاد الفكرية والحضارية بين دول أفريقيا جنوب الصحراء والمغرب؟ و ما هو دور الحسن الوزان في رسم هذه الترابطات الحضارية والتقاطعات الاجتماعية؟

الإطلالة على بعض هذه الجوانب في حد ذاتها يعد مغامرة شائكة فقد مرّ معنا أن دخول الإسلام إلى دول أفريقيا جنوب الصحراء قد أحدث "طفرة دينية وفكرية وحضارية، وهو في نفس الوقت يعتبر بداية يقظتها الحضارية وتاريخ ولوجها إلى ساحة الأحداث في العالم"[70]. لذلك وجدنا أن هذه الشعوب بدأت تحيد عن العادات والتقاليد التي كانت متأصلة فيها، وهذا ما جعل الطوارق يستجيبون لأوامر الدين الإسلامي في الصحراء[71].

ابتداء من العصر الحديث بدأت هذه الممالك السودانية تعرف حضارات حقيقية، حيث كان ملوكها: "يعيشون في قصور فخمة... وأنشأ المسلمون في "غاو وكيكيا" مدارس قرآنية فأصبحتا من اهم المراكز العلمية والفكرية، فضلا عن أهميتهما التجارية المرموقة"[72] لذلك "وصف مؤرخو الصحراء من الطوارق والسودان والعرب، أيام هؤلاء الملوك لا سيما منسا موسى صاحب الحجة المشهورة، بالعدل والرخاء، وبسطوا القول في مدح عهد الملك أسكيا محمد وخلفائه عموما (1493-1591م) و ركزوا على ازدهار الثقافة

---

[66]-الوزان، م م، ج2، ص 170.

[67]-الفشتالي، م م، ص117.

[68]-محمود كعت، م م، ص. 142.

[69]-دي طوريس، تاريخ الشرفاء ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف وت ون، سلا، 1988، ص. 9.

[70]-بازينة. م م، ص12.

[71]-أكزيل/ م م، ج6، ص 183، محمد بلو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، الرباط، ط1، 1996، ص 53.

[72]-عبد الوهاب شكري، لمحات من التاريخ الاقتصادي لدرعة، منشورات كلية الاداب اكادير 1996، ص 41.

العربية الإسلامية في هذه الممالك، وتقريب العلماء والتمكين للمؤسسات الاجتماعية لا سيما في خطط الدرس والخطابة والفتيا وركب الحاج والقضاء"[73].

صحيح أن البرتغاليين احتلوا ثغور مغربية على الساحلين المتوسطي والأطلنتي، لكنهم فشلوا في إخضاع معظمها، فتوجهوا مباشرة إلى السواحل الأفريقية حيث التبر والعبيد والملح وغيرها، فحاولوا بذلك خنق الاقتصاد المغربي[74].

لقد كان هدف البرتغاليين هو حرمان المغرب من عنصر الوساطة التجارية التي كان يتمتع بها منذ العصر الوسيط[75] بين دول أوربا ومناطق وجود هذه المواد الثمينة خاصة بلاد السودان الغربي[76].

وصحيح أيضا أن مملكة سونغاي تحولت من مملكة صغيرة إلى إمبراطورية شاسعة مترامية الأطراف، حيث استولت على معظم السودان الغربي أو كله، حيث وصلت في عهد أسكيا الحاج محمد (898-935هـ/ 1493-1528م) إلى أوج ازدهارها ورخائها. لكن ما هو مبرر الانخراط في التنافس حول الخلافة الشرعية والولاية العظمى؟ وهل كان أسكيا الحاج محمد مؤهلا للاستحواذ على الزعامتين الزمنية والروحية؟

لا شك أن أسكيا الحاج محمد كان يفتقد هذه المقومات مما جعله يبحث عن مصدر آخر للشرعية، حيث وجده كما ذكرنا في "التفويض" بالرغم من وجود هاجس التنافس على "الخلافة" بين امبراطورية سونغاي والدولة العثمانية والدولة السعدية الناشئة.

كان العثمانيون يسعون جاهدين لاستكمال سيادتهم على كل شمال أفريقيا بضم المغرب الأقصى لنفوذهم، ولم لا ضم بلدان أفريقيا جنوب الصحراء تحت حكمهم؟

يظهر ذلك بوضوح في المراسلات والبعثات من الباب العالي إلى السلطان السعدي محمد الشيخ[77] الذي كان يطمع هو الآخر، بعد مادانت له بلاد المغرب، أن يتجه صوب بلاد المشرق إذ كان يقول: "لا بد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج منها الأتراك من أجحارهم وأنازلهم في ديارهم، فتخوف منه السلطان سليمان القانوني"[78].

وقد كان يعتقد أن هدف حملة أحمد المنصور المضمر هو التخلص من العناصر العسكرية المزعجة مثل العلوج والأندلسيين (المورسكيين) والأتراك، لأنها كانت ربما تهدد حكمه خاصة العناصر المورسكية[79]، نظرا لان بعض الجند تمردوا عليه، إلى أن طلعوا جبل كليز ونافقوا عليه فيه، فأمر بإعطاء الراتب وإقامة المحلة أرسلها مع القائد 'ابن السالم" وأمره أن يمر بالمحلة إلى "كاغو" من بلاد السودان إلى أن دخلوا القفر، ففر عنهم الدليل عن إذن السلطان، فتاهوا في الصحراء، وهلكوا عن آخرهم"[80].

كان هاجس الخلافة هو المحرك الأساس لتطلعات أحمد المنصور[81]. لذلك أورد الفشتالي رسالة من أحمد المنصور إلى اسكيا

---

[73]-حماه الله ولد السالم، الاسلام والثقافة...، م م، ص 12.

[74]-أحمد بوشرب. وثائق عن الغزو البرتغالي ونتائجه، منشورات دار الأمان، الرباط، ط1، 1997، ص. 158.

[75]-بوشرب. المغرب وافريقيا في سياق كشوف العوالم الجديدة، منشورات معهد الدراسات الافريقية، الرباط، 1992، صص: 8-18.

[76]-الحاجي. الدولة السعدية...، م م، صص: 47-48.

[77]-حجي. مذكرات من التراث المغربي، ج3، ص 185.

[78]-الافراني: نزهة الحادي لاخبار ملوك القرن الحادي، ص 36.

[79]-أحمد رزوق. الاندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17م، الدارالبيضاء، مطبعة أفريقيا الشرق، 1989، صص: 189-210.

[80]-المؤرخ المجهول. تاريخ الدولة السعدية الدرعية التكمدارتية، ص 66.

[81]- محمد حجي. حملة المنصور وهاجس الخلافة، ضمن أعمال ندوة المغرب وافريقيا جنوب الصحراء في بداية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب مراكش، 1995، صص: 27-32.

اسحاق الثاني تصور الخليفة على أنه "المأمور والمكلف" بتوحيد كلمة المسلمين وذلك:

"لما اختصنا الله به من إمامة الجماعة....ووراثة الأرض ومن عليها"[82] ومن تم يضيف المنصور أن خلافته مستحقة بحكم تفضيله: "على جميع أولي الأمر والسلطان من ملوك الأرض بالنسب القرشي الذي هو من شروط الخلافة بإجماع علماء الإسلام"[83] وبذلك نجد أحمد المنصور قد تكفل بإصلاح أوضاع السودان وإزالة المحرمات والكبائر خاصة بعد وفاة أسكيا الحاج محمد حيث "فسدت في تلك البلاد الأحوال وظهر الاختلال، وتبدلت الشرائع، فلم يضرب قط بين اثنين منهم عقد نكاح... ولا وقع التزاوج على وجه مباح"[84]

وهكذا قدم أحمد المنصور نفسه مالكا المفتاح ومنقذا للسودان وللعالم عامة من الضلال، فهو الخليفة "الإمام الفاطمي النبوي" وذلك بالرغم من أن بعض السودانيين يلحقون نسبهم إلى النسب القرشي، وهذا يعني أن المنصور السعدي كان مضايقا بمفهوم وهاجس "الخلافة" حتى من سكان أفريقيا جنوب الصحراء خاصة تنبكتو[85].

منطق العلماء الرافضين من السودانيين لمشروع احمد المنصور كان يحكمه الموقف الشرعي: أن بلاد السودان أسلم عليها أهلها، وبذلك لم يبق لأحمد المنصور أي مسوغ لغزوها، خاصة وأن هذا الأخير استهدف العلماء قبل حملته قصد تهيء الأجواء فيها.[86] لكن العلماء آنذاك كانت لهم "وجاهة كبيرة ورياسة شهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث كثر فيهم العلماء والأئمة والقضاة، وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة، وكانوا مع ذلك من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه"[87].

خطاب أحمد المنصور لعلماء السودان يحمل في طياته دعوة سلمية للانخراط في المشروع السياسي لكن في حالة تنكبهم للاذعان له فهو يضمر الإجراءات القمعية والتعسفية لبيعة الإمام الشرعي و"الانقياد لدعوته النبوية والائتمام بإمامته الكريمة"[88] حسبنا في هذه الإطلالة أن نبين الامتدادات والتقاطعات التي أحدثتها رحلة الوزان إلى هذه الممالك.

ظهر التلاقح الفكري الحضاري في رحلة الحسن الوزان إلى هذه الربوع التي وصفها وصفا دقيقا خاصة فيما يتعلق بمجالاتها الفسيحة وخصائص شعوبها وأخلاقهم، إذ أنه درس القسم الثالث من هذه البلاد وهو الصحراء الكبرى والقسم الرابع التي هي بلاد السودان الواقعة وراء الصحراء[89] وقسم الوزان البلاد التي زارها إلى أربعة أجزاء، أعطينا إضاءات حول بعضها، حيث بين نُظم الحكم فيها، أكثر من اعتبار الاختلافات البيئية مبينا– كما قال:

"المدن والجبال والمواقع والقوانين والعوائد دون إهمال شيء مما يستحق أن يُعرف"[90]

---

[82]–الفشتالي. م م، ص. 123.

[83]–نفسه، ص. 123.

[84]–عبد الهادي التازي. المغرب. م س، ص. 148.

[85]–من رسالة أحمد المنصور إلى أسكيا إسحاق الثاني، جاءت عند الفشتالي في المناهل، ص.124.

[86]–كعت. تاريخ الفتاش...،م م، ص 179.

[87]–الناصري. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج5، ص. 129.

[88]–الفشتالي. م م، س. 131.

[89]–الوزان، وصف...م م، ج1 ، ص. 13.

[90]–الوزان، نفسه والصفحة نفسها.

خلاصات وامتدادات

جميل أن الوزان أعطانا وصفا لممالك السودان جنوب الصحراء، وأجمل ما فيه أنه ركز بتلميحاته على المجتمعات المتعايشة بهذا المجال الجغرافي، فقد أحصى في بعض الممالك عدد الكوانين، ووصف الرجال والنساء في عاداتهم وتقاليدهم وأعمالهم اليومية وفلكلورهم وحيويتهم وحالات كسلهم، وهي نفس التقابلية التي وضحها ابن خلدون في العمران البشري خاصة في مستواه الأول. وما زاد رحلة الحسن الوزان وزنا أنه لامس مستوى الذهنيات المتعايشة في هذه الأقطار، بل وركز على تجذر الهوية الأفريقية جنوب الصحراء مع المغرب في مسألة اللغة والدين والتاريخ المشترك، حيث أعاد الثقة للتبادل الحضاري الذي يضمن التماسك الاجتماعي عكس ما تدعيه الإيديولوجيات الاستعمارية من إرادة التشويه باللحظات الكبرى للتاريخ وبالأزمنة الكبرى لتلاقح الحضارات بين دول أفريقيا جنوب الصحراء والمغرب.

إن جل الدراسات المدققة والمعمقة بيّنت أهمية الرحلات التسع التي قام بها الحسن الوزان داخل المغرب وخارجه خاصة الرحلة الثالثة التي همّت بلدان أفريقيا جنوب الصحراء والتي بلورها في مؤلفه وصف أفريقيا خاصة وأن بعض النقاد الأوربيين توصلوا بالبديهة أنه تأليف عربي بتفكير أوربي، بحيث سارت مناهج الدراسات الاجتماعية بأوربا على خطاه، وبذلك أصبح معلمة تتقاطع فيها الأبعاد الفكرية بالأبعاد الحضارية.

مصادر و مراجع البحث

– أحمد اد الفقيه، نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي شرعا وعرفا وقانونا، 2002، ط1.

– عبد الله الحاجي، الدولة السعدية: آليات التطور ومظاهر التدهور: سوس بين 916-1510هـ/ 1015- 1609 م منشورات أفريقيا الشرق 2013. ط1.

– – أحمد رزوق، الاندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17م، الدارالبيضاء، مطبعة أفريقيا الشرق، 1989.

– ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء.

– محمد الغربي، ، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد، 1982.

– زهرة طموح، تنظيم القافلة خلال القرن 19م، التجارة والمجتمع والدولة عبر التاريخ، ج2 ، 1992.

– ولد السالم، حماه الله. تاريخ قبائل البيضان.

– عبد الوهاب الشكري، لمحات من التاريخ الاقتصادي لدرعة.

– يوسف نصر، تاريخ غرب افريقيا.

– عبد المجيد أمريغ، المجال الصحراوي المغربي من خلال النصوص الأدبية القديمة.

– عبد الله بازينة، انتشار الاسلام في أفريقيا جنوب الصحراء.

– ستيفان كزيل، تاريخ شمال أفريقيا القديم، م. س، ج6.

- يوسف روكز، افريقيا السوداء: سياسة وحضارة.
- أحمد شكري، الذاكرة الأفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن 18م (نموذج بلاد السودان) منشورات معهد الدراسات الأفريقية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط1، 2010م .
- محمد حجي، الحركة الفكرية، ج1.
- دييكو دي طوريس، تاريخ الشرفاء ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف وت ون، سلا، 1988.
- أحمد بوشرب، وثائق عن الغزو البرتغالي ونتائجه، منشورات دار الأمان، الرباط، ط1، 1997.
- عبد الوهاب شكري، لمحات من التاريخ الاقتصادي لدرعة، منشورات كلية الاداب اكادير 1996.
- عبد الله التجاني، رحلة التجاني، تونس، المطبعة الرسمية، 1958
- أحمد الونشريسي، المعيار المعرب والبيان المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي وآخرون، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، 1981، ج2 .
- أحمد الحجري افوقاي، ناصر الدين على القوم الكافرين، نشره محمد رزوق، منشورات كلية الآداب، الدار البيضاء، 1987.
- عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر...، ج 6.
- ابو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2013.
- محمود كعت، تاريخ الفتاش...باريس، نشر هوداس، 1964.
- عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا...
- عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، نشر هوداس، باريس، 1964.
- الحسن الوزان، وصف أفريقيا، م. س، ج2.
- احمد بن القاضي، المنتقى المقصور...م. س، ج1.
- محمد المغيلي، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للتوزيع الجزائر 1968.
- المجهول، تاريخ الدولة السعدية الدرعية التكمدارتية.
- محمد الإفراني، نزهة الحادي لاخبار ملوك القرن الحادي.
- Maury R, Tableau géographique de l'ouest Africain, Dacar, 1961.
- F. Braudel , La Méditerranée et la monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, éd. Armand Colin, 2ème éd, 1966.